القدس بوابة الجنة

د. أمين سليمان الستيتي - الأردن

هذا شتاء أكثر أمطارًا منذ عرفت الدنيا، لكنه دافئ. بادر الخضر أصحابه الذين تجمعوا ينتظرونه على الصخرة الكبيرة التي تتوسط بيوت الحي، وتكسوها زرافات الشباب، كأنهم نبتوا من عروقها، يتشبثون بها، وتتشبث بهم، وتمد شعاب جذورها إلى أقطاب الجبل، كأنها تأبى الحراك، وترفض أن تُقتَلَعَ.

عشق يتبادلونه مع صخرتهم التي احتضنت أفراحهم، فعليها أعلنوا ميلادهم، واستقبلوا أنباء الشهادة، والبيانات التي حملت صور الشهداء، ونصبوا فوقها لوحتهم المتنامية ، لله درهم! أشار أبو أسامة، وقال: كان أول الشهداء باسل، ثم لحق به العامر، ثم.....، لم ينس أحدًا منهم. وكيف ينساهم وقد عاش معهم أيامه بظلها وشمسها، وكانوا له مشاعل تضيء الحياة.

ناداه محمد، وأشار إلى ملف الصور التي لم تعلق بعد، وسأله: أتعرف أية صورة ستأخذ مكانها على اللوحة أولا؟ تسمرت عيون الشباب في وجهه، وكأنهم ينتظرون أمرًا جللاً. لكنه كعادته لم يذكر أحدًا، ولم يُشر إلى أحد، بل انتقلت عيونه من وجه لوجه، كأنه يُقبلهم بين العيون، وتنهال من عيونه أمواج المحبة الدافئة، المتلفعة بأنين المقاومة، وجروح الظلم الكافر، فهو البلوى التي يستخلص الله – سبحانه وتعالى – بها الشهداء!

ألقى جسمه المتلفع بدثاره الصوفي الأسود، وأطلقها زفرة ساخنة وتمتم بعدها: ما أجمل الدفء! تعالت الضحكات، وسمعهم يتساءلون: وكيف لك أن تشعر بالبرد وأنت تحمل لحافًا يزن عشر كيلات من الصوف؟ هنيئًا لك الدفء يا عم. وبادلهم الضحك وتشعب معهم بأحاديثهم التي لم تغادر أخبار الشباب في أنحاء المخيم، منذ بدأ الحصار.

مجدي استشهد في ساحة المخيم بصاروخ من طائرة الأباتشي الأمريكية الصنع، وخالد برصاص القناص الحبشي الأسود، يقولون عنهم من يهود الفلاشا. يكذبون يا رجل، ألم تسمع أبا النصر يقول: إنه رآهم يصلون في مصنع الحديد الذي كان يعمل به في حيفا؟ وحين سألهم: ألستم يهودًا؟ قالوا: لا يا عم أي يهود؟ نحن هربنا من الجوع في إثيوبيا، وهم هنا أطلقوا علينا أسماء يهودية! قاتل الله الجهل والفقر، كيف أوصلهم إلى أن سخروا أبناءنا لقتلنا!

يا رجل هؤلاء يكذبون في كل لحظة، وكل حركة، وكل كلمة! يأتون بالقوقازي، ويقولون: هؤلاء يهود الخزر، ويأتون بالأوروبي الشرقي والغربي ويقولون: هؤلاء الأشكناز! ويأتون بالشرقيين ويقولون: هؤلاء السفرديم! ألا ترى أنهم خليط عجيب من شذاذ الآفاق؟ ويتدرعون بالفكر الصهيوني الديني العنصري ليوهموا الناس أنهم على ملة موسى – عليه السلام –، وهو بريء منهم براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام.

لم يكن الخضر يركز على المتحدث، تركيزه على المعلومة. ويسأل بين الحين والحين: كل هذه الأخلاط العجيبة جلبوها وأعطوها حقوقنا التي حرمونا منها قبل ولادتنا؟! أسكنوهم بيوتنا، وملكوهم أرضنا، واقتلعونا وألقوا بنا في هذه المخيمات التي لا يستطيع أحدنا أن يزرع فيها عِرقًا من النعناع أو البقدونس، وأرضنا بما حباها الله من خير أمام أعيننا، ويرتعون بخيراتها، ويهدمون مساجدنا، ويعبثون بمقدساتنا، ويجرعوننا الحرمان ألوانًا!

لم يتركوه يسترسل، وكأنهم أرادوا أن يطفئوا لهيب ثورته في صدره، فقال له أبو خليفة: نصيبك في الجنة يا شيخ الخضر، تأكد أن الله سيعطيك يوم القيامة خيرا ينسيك كل الشقاء الذي تجرعته، فتجمل بالصبر، وادعُ الله أن يجعلنا من الشهداء!

ردد الشباب من أعماقهم الملتهبة: اللهم آمين. مقبلين لا مدبرين، متيقنين من نصر الله، مستبشرين بحوصلات الطير التي ستحمل أرواحنا وتتعلق بعرش الرحمن – سبحانه –! وارتسمت البسمات العريضة حين سمعوا أم الخضر تناديه ليتناول الشاي الذي تعودت أن تقدمه للشباب، فهم أبناؤها، وأبناء إخوانها وأخواتها.....، وكلهم من محارمها. وبادلتهم البسمات، وساءلتهم عن أهلهم وأحوالهم.

أكثروا من كلمات الشكر والتقدير لأم الخضر، وداعبوه بألفاظ الحسد على مثل هذه الأم التي لا تنسى أن تقدم لهم الشاي في كل مرة، ما أكرم هذه الأم! عيونها الدافئة تلفهم، ودعواتها تحوطهم، ورقيتها تدور فوق رؤوسهم، أن يحفظهم الله، ويجعلهم نارًا على الأعداء، رحماء بينهم.فهي تراهم قبيل الفجر رُكّعًا سُجّدًا، وتراهم في النهار يصومون ما شاء الله لهم من الأيام البيض وغيرها. وترى العدو يطاردهم ويطلبهم في كل حين. وكم شاركت في تنبيههم لدوريات المستعربين التي ما فتئت تحاول مفاجأتهم!

تقدم أبو المسرات خطوة نحو الخضر، وهمس في أذنه: كأنك لم تتمكن من الوصول إلى القدس؟ احمر وجه الخضر، ونظر في كل اتجاه، ثم رد عليه هامسًا، لقد عدت للمرة الرابعة يوم أمس! ووعدني السائق غدا بعد الظهر، على أن ننطلق قبيل الغروب. فهو يعرف الطرق الترابية الالتفافية التي تجنبنا الحواجز، فأنت تعرف أنهم – لعنهم الله – قد أكثروا منها هذه الأيام. وأنا والله اشتقت إلى الجنة شوقًا لا يعلمه إلا الله. وما عاد للدنيا في نظري طعم ولا رائحة، لأن رائحة الجنة ملأت كياني.رفع أبو المسرات صوته بالدعاء: وفقك الله، ووفقنا جميعا لنيل الشهادة إن شاء الله. وردد الجمع بصوت مرتفع: اللهم آمين.

تفرق الجمع، وانقلب الخضر على أهله والبسمة لا تفارق وجهه. وكأنه يرسم في ذاكرتهم لوحته المشرقة

التي سيقابلهم عليها يوم الحشر. أو على فراشه بعد العشاء، وما لبثت أمه أن اقتربت منه وهو يصلي قيام الليل لتضع على كتفيه جبته الصوفية تحميه من برد أواخر الشتاء المختلط بنسمات الربيع... ما لبث أن أنهى ركعتيه، ثم انقلب ليراها تعد له كوب الشاي الساخن الذي يدفئ جوفه! قبل يديها وسألها أن تدعو له بنيل الشهادة. ترددت كثيرا، لكنها وأمام إصراره وتركيز نظراته نطقتها تترجرج على شفتيها كأنما سلّتها من أعماقها!

أخذها الخضر كمن حيزت له الدنيا من أقطارها، وملأ البشر وجهه، وعاد ليكمل صلاته بركعتين خفيفتين، ليعود إلى أمه ويشرب كأسًا آخر من الشاي وطلب منها أن تزيده عسلاً، فأعجبها ودعت له بابنة الحلال التي تملأ عليه شتاءه وصيفه، لكنه لم يمهلها كثيرا حتى قال: في الجنة إن شاء الله في الجنة! ثم انثنى على بقايا سجادة ورثها من جدته، كان يكثر من قيام الليل عليها، لتذكّره، فيكثر لها الدعاء!

خرج كعادته قبيل الظهر، ولم يعد إلى البيت، لم ينسه أهله، لكنهم واثقون من استقامته، ولا تساورهم بشأنه الظنون. أما الجو في المخيم فلا يطمئن له عاقل. وقد عاد الناس من صلاة العصر، ولم يعد الخضر! أطلت أمه من النافذة لتراه: أبين الشباب على صخرتهم؟ لكن الصخرة هذا المساء خالية. بدأت أحاسيس أم الخضر تتماوج، وأفكارها تقرع الطبول، لكنها كانت تدفعها دفعًا. حتى إذا جاء أبو الخضر من صلاة المغرب صارحته بظنونها التي لم تستطع كتمانها، وأصرت أن يخرج ليبحث عنه بين شباب الساحة! خرج أبو الخضر بمشيته الهادئة، يسلم على مجموعات الشباب التي لم يخل منها زقاق في المخيم، رغم شدة البرد. لم يلفت انتباهه الهدوء الذي يخيم على كل مجموعة يمر بها. ويسأل: أفيكم الخضر؟ أرأيتم الخضر؟ لم يعد من قبل صلاة الظهر!

ما مل أبو الخضر ترداد أسئلته على مجموعات الشباب التي لم ترح قلبه بجواب. لكنه وقف قبل أن يسلك طريق العودة إلى البيت أمام شاشة الأخبار المحلية في وسط المخيم: والناس يتجمعون كأنهم في مسيرة شعبية، حتى إذا وصل قريبا منها، رأى صورة الخضر عليها وقد كللوها بشريط، وزرعوا حولها الزهور التي كثيرا ما زرعها في أحواضه المعلقة في البيت. تسمرت عيونه على الشاشة، وساد الصمت جماهير الحضور، والمذيع المسائي يروي حكاية الخضر مع حواجز الكفار المحتلين:

سيداتي وسادتي: هذا هو الخضر، ولد في مخيمنا هذا، وتربى وتعلم في مدارس وكالة غوث وتشغيل اللاجئين، ورضع الحرمان منذ ولادته، لكنه أبى أن يركع أو يذل لهؤلاء الكفرة. أقسم على الله كثيرا أن ينال الشهادة، ما سجل له أهل المخيم إلا الخير، وما ترك أحدًا منهم إلا وقدم له ما يكفيه من العون. كانت القدس له هي الطريق إلى الجنة، كانت حلمه أن يقاتل فيها حتى الشهادة، وقد حقق الله له دعوته، لقد وصل الخضر إلى القدس عصر اليوم، وسلك طريقه نحو هدفه الذي رسمه. قطعت عليه الحواجز طريقه في المرة الأولى، رجع من طريق آخر، لكن هناك حاجز أيضا منعه من الوصول إلى الهدف.

كان أحد الشباب يرافقه عن بعد ويتابعه بآلة التصوير، رآه وهو يعود للمرة الثانية عن الحاجز الآخر، ظنه سيعود إلى البيت! لكنه رآه يسلك طريقًا ضيقًا أوصله خلف الحاجز، وبدأ يمد الخطا وكأنه على ميعاد. وأطلق العنان لرجليه، لم يبق بينه وبين الهدف إلا مئات الأمتار، سيدخل المبنى ويسلمه إلى خالقه.... يا الله هذا حاجز ثالث، وجنود الكفر يتكاثرون عليه، بأعداد مضاعفة، ظن المصور أن الخضر سيرجع مرة أخرى، وقف... وركز آلته على الخضر مرة وعلى أرتال جنود العدو مرة أخرى. لم يرجع الخضر، تقدم نحو

الحاجز، أخذ دوره بين المواطنين الذاهبين إليهم، لم يبق بينه وبين الجندي الذي يفتش الناس جسديا إلا ثلاثة... اثنان هو معه يحدثهم... اندفع الخضر نحو أرتال الجنود المتجمعة خلف المفتش لم يمهلهم، صاح بهم: (الله أكبر) وتناثرت الأشلاء إلى السحاب مع آخر الصرخات.

تسمر صاحبه بآلته تلتقط آخر الأخبار التي لن يراها الخضر على الشاشة الصغيرة، خلت الساحة من الناس إلا سيارات الإسعاف التي تكاثرت، وبدأت تحمل الأشلاء، حاول خبراء العدو أن يستخرجوا جثة الشهيد، لكنهم لم يتمكنوا، حملوا الجثث كلها، وجاءت سيارات المياه لتغسل الدماء التي صبغت الساحة.

صار الشباب يعدون الأشلاء التي جمعها العدو من الموقع: واحد – اثنان – ثلاثة – أربعة – خمسة – ستة – سبعة -.... لا لا لا... هذا ليس واحدًا إنهما اثنان، يا مخرج نشرة الأخبار أعد الصورة... يا علي اطلب من المخرج أن يرجع بالصورة لنرى كم أخذ معه الخضر من هؤلاء الأوغاد.....

كان أبو الخضر يقف ويسمع ويرى، يرى ابنه الذي رباه سنيّ العمر، وكان أمله أن يلقاه في كبره، يراه يسرع نحو العدو كأنه القدر، ويختلط بهم حتى يتوسطهم وتعلو صيحاته: (الله أكبر)، ثم ترتفع الأشلاء إلى ما فوق السطوح، كانت الأشلاء لأكثر من عشرة من جنود العدو، لكن شعرة من الخضر أطهر منهم جميعًا، فهو إن شاء الله من الشهداء، وروحه كما كان يتمنى في حوصلة طير من طيور الجنة، يطوف بها الأرجاء ثم يتعلق بعرش الرحمن. اللهم اجمعنا به في الجنة،وشفعه بنا،وحقق النصر لإخوانه من بعده، وثبتهم وثبت أقدامهم، وانصرهم على أعدائهم.... انطلقت هذه الكلمات من شفتي أبي الخضر، وهو يغادر الساحة متوجها إلى البيت.

وحين اقترب وقفت الكلمات على شفتيه، ولم يدر ما يقول لأم الخضر، خرج ليأتيها به، فجاءها بخبره! لكن الشباب كفوه الموقف، فهم لم يتركوه وحده منذ غادر الساحة، بل مشوا خلفه، صامتين، يحملون معهم كل ما يحتاجه أهل الشهيد في موقفهم هذا. وحين فتحت أم الخضر الباب لم تر زوجها وحده، رأت شباب المخيم كلهم، يحملون صور الخضر وقد كللتها الزهور الموشحة بالخضرة والسواد، فما كان منها إلا أن قالت: إن لله ما أعطى، ولله ما أخذ، وإن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، وإنا على فراقك لمحزونون يا الخضر، ولكننا لا نقول إلا ما يرضي ربنا: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم إنا نحتسب مصيبتنا عندك، ونرجو أن تخلفنا خيرًا منها ■